

في الحياة والموت لم يصادف حافظ إلا حسكا وشوكاً . في الحياة والموت لم يلق إلا غمطاً ونجاشاً ، فحق له وهو يعلم حظه المسكود ان يتوق الى الموت ، ليستريح من العناء ويرتاح من رؤية هذه المصادقات تقتحم عليه عرين راحته ، وتكاد تسد عليه منافسه ، فتدبقه من علقمها الواناً واشكالاً ١

اي حافظ !

ان السوريين قاطبة ليكرمون فيك دائماً اخاً وصديقاً وحبيباً . يكرمون فيك شاعراً عظيماً ، شاعراً أشاد بمفاخرهم ، وحاول الجمع بين القلوب . وهذه التحية التي يزفها اليك احدهم في هذه السطور يرجو ان تنوب لدى روحك النبيلة ، ولدى أبناء وطنك ، عن سورية وبنيها الرابضين في الوطن والمهاجرين في اطراف العالم . فأنت وإن مت وغادرت دار الاحياء الى دار الخلود والبقاء ، فإن ذكراك حية خالدة في أفئدة السوريين ، منقوشة ابدآ على صفحات قلوبهم . وفي ذمة الله يا حافظ ما

مسبيل سليم كبير



المديح والشكوى والثناء

في شعر حافظ

لحافظ أشعار كثيرة في مواقف عدة ومناسبات مختلفة ، ولهذا لُقّب بالشاعر الاجتماعي ، وشاعر النيل ، وشاعر الشعب ، الخ . وهو جدير بهذه الألقاب ، إذ أنه الشاعر الوحيد الذي كان ينطق بلسان الشعب ، فيتألم لآلامه ويفرح لما يصره . وأقرب وصف لنفسية حافظ هو ما وصفه به خليل بك مطران من مقالة ذكر فيها : « ولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء ، كبير الآمال عائر الجسد ، تجدد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس أو مشعة من الشكوى ، وتحمل بمض حروفه من بث ما يبلغ لدغ النار الكاتمة في غير متقد »

ان لحافظ أشعاراً في شتى المناسبات ومختلف المواقف كما أسلفنا : فاذا مدح فهو الشاعر الفذ الذي يخلع على ممدوحه ثياب الفخر والبهاء الى ابد الدهر ، وإن شكا من الزمان ومن مفارقة الأوطان والاهل والغلان صور لك روحه كأنها تنقلب على

الجمر فهي تعاني من الآلام ما تعاني . وما كان من أشعاره في الرثاء فهذا مما لا يجاري فيه ، فهي بجمعتها دموع من قلبه تقطر دماً فلا عجب أن يجيد حافظ المرأى بعد أن نعلم أن ذلك الشاعر العظيم نشأ على البؤس والشقاء ، ولا زال يغالب الأيام وتغالبه حتى ألقى السلاح أخيراً ليرتاح الراحة الأبدية التي لا تعب فيها ولا نصب .

لنبداً أولاً بأشعاره في المديح : قال من قصيدة يمدح بها الشيخ محمد عبده وهي في غاية الاحكام وحسن الانسجام ، وحسبك ان تنظر كيف ذلل القوافي وجعلها سلسلة الانقياد ، وكيف خلد ممدوحه في هذه الابيات الخالدات ، كما خلد نفسه في طليعة الشعراء الخالدين :

قالوا: صدقت، فكان الصدق ما قالوا	ما كل منتصب للقول قوَّال
هذا قريضي وهذا قدر ممتدحي	هل بعد هذين إحكام واجلال ؟
انى لا أبصر في أثناء برده	نوراً به تهتدى للحق ضلال
حلت داراً بها تُتلى مناقبه	يبابها ازدحمت للناس آمال
رأيت فيه بساطاً جلّ ناسجه	عليه فاروقُ هذا الوقت يَحْتال
بمشيةِ بنِ صفى حكمةً وتقى	يجبها الله لا تبه ولا خال
بيت من الشعر يرنّ صده في الآذان فيجاوزها فيعم الدنيا صارخاً :	
هذا قريضي وهذا قدر ممتدحي	هل بعد هذين احكام واجلال ؟
فيجيبه لسان الدهر قائلاً :	

لا ورب البيت ، لا أرى أكرم من هذا الاجلال . وأى اجلال أحكم من الذي يخلد في صحيفة لا تنسى إلى آخر يوم من أيام الدنيا ؟ فليهنأ قائله وليهنأ من قبل فيه بالخلود الأبدى !

أما ترى الرجل في الأبيات التالية من قصيدة يمدح بها ادوار السابع ملك الانجليز يوم تتويجه كيف حنكته نواب الأيام فجعلته خبيراً بأحوال الانجليز وسياستهم الملك وتديرهم شؤونهم ودهاهم أكثر من غيره ممن اتصل بهم :

خبرتهم فرأيت القوم قد سهروا على مرافقهم والملك قد سهر
تشاوروا في أمور الملك من ملك الى وزير الى من يفرس الشجرا

وكان فارسهم في الحرب صاعقة وذو السياسة منهم طائراً حذرا
بالبر صافنة داست سنابكها مناجم التبر حتى طافت المدرا
وفي البحار أساطيل اذا غضبت تر البراكين فيها تغذف الشررا
وهن في السلم والايام باسمية عرائس يكتنين الدل والخفرا
لا ريب ان الرجل بعيد الفراسة ينظر لكل ما يحيط به نظر حصيف مدرب
لا تعتمداه فائنة ولا تفلت منه .

لنجس خلال بؤسه وآلامه واتعابه ، ولننظر الى أى حد وصل به ذلك
البؤس المرهق الذى لا يصمد له من الرجال الا الأفاذ القلائل :

وددت لو طرحوأ بى يوم جئتهم في مسبح الحوت أوفى مسرح العطب
لعل (ما فى) لاقى ما أكابده فودت تعجيلنا من عالم الشجب
هكذا فليكن قرض القريض مترجماً عما فى نفس صاحبه وما يساورها من
خوالج . لازمه البؤس والنصب من عهد الشباب الى أيام الشيخوخة الا قليلا منها ،
فأرسل الشكوى الحارة المحرقة تقطع نياط القلوب وتفتت الأ كباد وتناضل
عن العبقرية وحقوقها عند الجمهور المستهين بها .

أو ما تراه كيف بأسف على ما جثم نفسه من ركوب الأخطار والانعاب ،
لولا أحكام القدر القاسية التى جعلته يكتسب رزقه مضطراً بهذه الحالة المضنية ،
وكيف عاد يعتذر لنفسه عما لاقته من انعاب ، وان سبب انعابها راجع الى والده
الذى عمل على ايجاده فى هذه الدنيا ، وقد زاد على قول المعري :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

بأن أشرك نفسه مع والده فى الذنب إذ يقول :

رمى بها على هذا التباب وما أوردتها غير السراب

وما حملتها الا شقاء تقاضينى به يوم الحساب

جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى فدعى عتابى

الى أن قال من هذه الشكوى المؤثرة :

سعت وكم سعى قبلى أديب فآب بحية بعد اغتراب

وما أعذرت حتى كان نعلى دماً ووسادنى وجه التراب
وحق صيرتني الشمس عبداً صبيحاً بعد ما دبغت إهابى
وحق قلم الاملاق ظفري وحق حطم المقدار نابى

ولعم الحق لو حاول أمهر المصورين ان يصور ما بسطه حافظ من شكوى في هذه الأبيات القلائل لما استطاع ، وكأني أراه خارجاً مع الجنود في بعض المهام إلى بلد بعيد وقد تقطع نعله من كثرة المشى ، فظل يسمى حافياً وقد بلل دم قدميه وجه الثرى ، حتى اذا أدركهم الليل نام ملتحفاً الأرض كغيره من الجنود فاذا أشرقت الشمس في صباح الغد طودوا المسير وقد تضاعفت حرارة الشمس بما يصهر الجلود ويغلى الأدمغة . ولم يزل هذا ديدنه في الأيام التي كان فيها ضابطاً بالسودان في الجيش المصري حتى أحالت لفحة الشمس وجهه المشرق بالبياض ونضرة الشباب إلى وجه قد علاه السواد كما يعلو الصداً سيفاً لبث في غمده أعواماً — فيا لها من أقدار ساخرة لا ترحم ، تلك التي جعلت شاعر مصر الاجتماعي العظيم يتذمر من الحياة ويشكو من أنعابها ! يا لها من أقدار تلاعبت به كتلاعب القط بالفار حتى قال :

فلو ساق القضاء إلى نفعاً لقام أخوه معترضاً شحيحاً
والآن فلننتقل من شقاء متواصل إلى أدمع من دماء سكبتها روحٌ ذافت مرادة الألم وطام الملقم .

قال من قصيدة يرثي بها المرحوم الشيخ محمد عبده :

سلامٌ على الإسلام بعد محمد سلامٌ على إمامه النضراتِ
على الدين والدنيا ، على العلم والحجبا على البرِّ والتقوى ، على الحسَناتِ

فأنت بمجرد قراءتك لهذه البيتين في مطلع القصيدة تعرف مبلغ الحزن العميق الذي نال الشاعر بفقد الأمام — حزن من أحسنِّ بعظم المصاب وفراغ المكان في وقت كان الاسلام في أشد الحاجة الى بقاءه ليخرس ألسنة الأفاكين . والقصيدة بأكملها تبرهن على حزن ناظمها حزناً لا تشوبه شائبة رياء أو مجاملة .

بماذا تشمر حين تقرأ الأبيات الآتية ؟ ألا تشمر معي معظم الخسارة الفادحة وقد صور ذلك الشاعر تصوير مفجوع ثا كل فأبدع التصوير حيث قال :
تباركت هذا الدين دين محمد أيترك في الدنيا بغير حماة ؟

تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات
الى أن قال :

فيا سنة مرت بأعواد نعشه لأنت علينا أشام السنوات
خطمت لنا سيفاً وعطلت منبرا وأذويت روضاً ناضر الزهرات
وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفساً على جرات الحزن منظويات

الى أن قال مصوراً للحزن الذى استولى على الشرق خاصة والعالم الاسلامى
علمه بفقد ذلك العالم الجليل :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضافت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون وفى الصين جازع وفى مصر بالكٍ دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب وفى تونس ماشئت من زفرات
بكى عالم الاسلام عالم عصره مراج الدياجى هادم الشبهات

وهاك أبياتاً من قصيدة قالها فى حفلة تأبين المرحوم مصطفى باشا كامل يترجم
بها عن الحزن الذى استولى على الناس عند وفاته وشعورهم بخوفه زعيم الوطنية العظيم :

تسمعون ألقاً حول نعشك خُشَعٌ يمشون تحت لوائك السِّبَّارِ
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطارِ
آنا يوالون الضجيج كأنهم ركب الحجيج بكمة الزوارِ
ونخاظم آنا لفرط خشوعهم عند المصلى ينصتون لقارى
غلب الخشوعُ عليهم فدموعهم تجرى بلا كلجٍ ولا استنثارِ
الى أن قال :

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكت عليك حرائر الافكارِ
سفرت تودع أمةً محولةً فى النفس لا خبراً من الأخبارِ

لا ريب أن حافظاً أجاد تصوير الفاجعة على حقيقتها الواقعة تماماً . فهو بعد
أن تكلم عن ذوات الخدور وخروجهن فى جنازة الفقيد ليشيعنه الى مقره الأخير
وقد مزقن أستار الحجاب وجاهرن بالسفور أمام الجماهير المشيعة للفقيد عاد فحبه

الفقيد بأمة . لتقديره له كزعيم وطني يطالب باسترداد حقوق بلاده . وقد صدق في هذا التشبيه فكل من يسعى في تحرير بلاده فهو لا شك قلبها النابض وفكرها الثاقب إذا فقدته فلاحياة لها بعده — بعد سكون قلبها من خفقانه وخود فكرها بعد توفده — حتى يقوم فيها بعده داعٍ أو دماء يسمعون في تحقيق أمانى البلاد فتُبعث من جديد بعد الموت مع الأمم الحية .

والآن لنضع القلم عند هذا الحد مكتفين بهذا النذر من حياة (الشاعر الاجتماعي) الأدبية فقط . أما حياته الخاصة فلنترك الكلام عنها للمتصلين به من أبناء مصر المجيدين ولنترك الدهر منشداً بلسانه :

خالده الآثار لا تخش البلى ليس يبلى من له ذكرٌ خلد

الحريرة ابا - السودان : بشرى السبر أمين



سيرة حافظ

الى الشاعر البائس شاعر الانسانية المعذبة الناشر الحق والنور ، الشبيه بتلك الشمعة التي تذوب لتضيء لغيرها ، المتعلق بأهداب الوطن الجريح ، ذلك الذي هدمت آماله وبددت أمانيه ، وبعثت أحلامه ومات وهو يردد « مصر فوق الجميع » الى روحه الطاهرة المرفقة بجناحيها في سماء آلهة الشعر بجانب عرائس الجنات في عالم الخلود ، البك يا حافظ أهدي رسالتى

١ - مولده

في فجر يوم من أيام سنة ١٨٧١ بدبروط وأسرته في عيدها الأواحد تستقبل ابنها الأواحد الذى أبت الأقدار أن تبعث به من عالمها الرهيب المجهول إلى عالم الخلد بصورة وآياته الألفى ذلك الوقت الأخير وقد رفع أبوه طرفه الى السماء مردداً : « اللهم لك الشاء العاطر والشكر الجليل » ١

وظل ذلك الوليد العزيز ينعم بقبلات أبويه صباح مساء حتى بلغ السنتين أو يزيد ، ثم نُكِبَ بموت والده الذى تركه بين أحضان أمه التى أضناها الأسى وحزبها الألم وقضت من بعده وهى تمنى لو أن تفتدى ما فى حياتها من زينة وبهجة وسعادة ومال يبقائها ولو بضع سنين حتى ترى حافظها يسير سير الرجال